والعاقبة للمتقين

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على النبي الأمين سيدنا مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛

يرى بعض الناس اليوم –ممن هزم نفسيًا لقلة ثقته بوعد الله وعدم فقهه سنن الله وأقداره، وعدم فهمه لطبيعة الصراع وأبعاده– أن الساحة انتهت، ولم يبق ثورة ولا جهاد؛ فها هم "جماعة الدولة" انتهوا في الموصل أو كادوا، وأيامهم في الرقة معدودة ثم ينتهي الأمر وتدور الدائرة علينا، ويتفرغ الجميع لنا، ولم تبق لنا إلا إدلب!!

ثم يبدأ هذا البعض بطرح حلول غريبة، فمنهم من ترك الساحة ولاذ بدولة ما، ومنهم من يستدعي تدخل دولة ما باسم الحماية –التي حقيقتها الاحتلال لنا ووأد جهادنا وثورتنا في ظل التفاهمات الدولية الرامية لذلك–، ومنهم من يريد غطاء يتوهمه ساترًا وليس هو كذلك –بمعزل عن طبيعة هذا الغطاء–، ومنهم من يقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما جعلتها ثورة ولبقيت في كنف النظام، ومنهم من عاد لحضن الوطن مشبحًا أو غير مشبح.

والتحليل الوحيد لهذه الحلول المختلفة هو كون أصحابها قد أصيبوا بالهزيمة النفسية وفقدوا روح المقاومة وإرادة الاستمرار ومواصلة الطريق.

وليعلم الجميع أن هؤلاء ليسوا جميعًا من المنافقين، بل فيهم صادقون مخلصون، ولكنهم مهزومون فاقدون لإرادة المتابعة، يائسون من إمكانية التغيير، وهؤلاء هم من المرجفين والمخذلين والمثبطين –وإن لم يقصدوا أن يكونوا كذلك–، فالعبرة –في هذا الصدد– بما يقولونه وما يفعلونه لا بما يقصدونه وينوونه، قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٠]. فالمنافقون غيرُ المرجفين وغير الذين في قلوبهم مرض، ولا يشترط في المرجفين أن يكونوا منافقين، وإن كان المنافقون بالضرورة مرجفين، فكل منافق مرجف، وليس بالضرورة أن يكون كل مرجف منافق، غير أن الإرجاف من خصال أهل النفاق.

ونحن هنا لن نطيل القول في الرد على أقاويل تلك الفئات، ولكنا نلفت نظر الثابتين على الطريق – وهم كثر بفضل الله، نسأل الله أن يصحبهم بمعيته وأن يجعلنا منهم– إلى النقاط التالية:

– هذه هي طبيعة الابتلاء التي يبتلي الله بها أولياءه، حتى يتجردوا له، وعندها يتأهلون لتنزل نصر الله عليهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:١١٠].

– ليس حالنا اليوم بأشد من حال من قال الله فيهم: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب]. ومع هذا كان رسولنا صلى الله عليه وسلم يقول مبشرًا: «**اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ... اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ... اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ**»، وكان المنافقون يقولون: "أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ مُحَمَّدٍ يَعِدُنَا أَنْ نَطُوفَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَأَنْ نَغْنَمَ كُنُوزَ فَارِسَ وَالرُّومِ، وَنَحْنُ هَا هُنَا لَا يَأْمَنُ أَحَدُنَا أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْغَائِطِ، وَاللهِ لَمَا يَعِدُنَا إِلَّا غُرُورًا".

– المؤمن الحق لا يجعل اللحظة الراهنة تستولي عليه وتسلب تفكيره الحالي والمستقبلي، بل ينظر للأمر من منطلق انتسابه للأمة لا للطائفة أو العرق أو الدولة أو غيرها، ينظر للأمور من كل الزوايا دون الغفلة عن حركة أقدار الله كيف يصرف الأمور.

انظر لحجم التغير الضخم الذي طرأ على شعوب الثورات خصوصًا والشعوب الإسلامية عمومًا، واعلم أن الله يهيئ أهل الإسلام –خصوصًا في شام الإسلام– لأمر عظيم، وانظر أين كان الجهاد قبل ثلاثين سنة وأين هو اليوم، حتى تعلم مصداق هذا، واعلم أن حطين هي ثمرة معارك جزئية كثيرة عبر عقود مديدة، منها ما كانت الجولة فيه لأهل الإسلام، وأغلبها كانت الجولة فيه لعدوهم، ثم كانت الغلبة لمن ثبت على طريق الجهاد، وجلت الممالك الصليبية عن أرض المسلمين.

وقل مثل هذا عن التتار واجتياحهم لأمة الإسلام وإسقاطهم عاصمة الخلافة بغداد، ثم كانت عين جالوت، وفي وقت يخيل فيه لكل حيٍّ حينها استحالة وقوف قطز بجيشه المتواضع أمام الجيش الذي أسقط نصف المعمورة!! ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

– سنة الله في ابتلاء المؤمنين والمكر بالكافرين واستدراجهم تمر عبر حلقة أو دورة تاريخية يعيها من يقرأ السنن الربانية من خلال فهمه للقرآن والتاريخ، وواقع الصراع، لا انطلاقًا من ثورة وجهاد الشام بشكل مبتور عما قبله وعما حوله على مستوى الأمة، بل بقراءة مستوعبة للصراع الحالي على مستوى الأمة، وحتى لو قصرنا الأمر على ساحة الشام فإن حجم التغيرات على المستوى العالمي منذ انطلاق هذه الثورة المباركة ينبئ بأن الاستمرار فيها والثبات عليها رغم كل الآلام والتضحيات هو الكفيل بإذن الله بكسر القيود التي تقيد حركة هذه الأمة.

– حجم التدخل الكبير لكل القوى في الشام (أمريكان – روس – إيرانيين – دول وظيفية) يعكس مقدار خوفهم من المسلمين، ولا يعكس ضعف المسلمين كما يرى المنهزمون، فالعدو ليس قويًّا بل إن عيون البعض هي من تراه كذلك، والمسلمون ليسوا ضِعافًا بل هناك انهزام نفسي عند البعض.

ولقد أراد أهل الإسلام في الشام لثورتهم أن تسقط نظامًا واحدًا، غير أن يد الله تعالى توجهها جهة تغيير أنظمة بأسرها من خلال تغير بنية النظام الدولي كما نلحظ، وقد كان للثورات –خصوصًا الشام– دور واضح في هذا، وقد أدرك النظام الدولي ذلك جيدًا فراح يضرب الثورات بالثورات المضادة، والمشهد الظاهر لمن لا يقرأ الأمور بعمق هو نجاح الثورات المضادة وقرب انتهاء الجهاد والثورة في عدد من بلاد الثورات، وليس الأمر كذلك، فإن حالة عدم الاستقرار للنظام الدولي من خلال استمرار الجهاد كفيلة ببعثرة هذه المنظومات، وهذا يتطلب المزيد من الصبر والثبات، حتى وإن بدا المشهد أسوأ مما كان عليه ما قبل الثورات في بعض البلاد، «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يَسْرًا**».

فكل ما ترونه من أحداث على أرض الشام أو غيرها من انحسار لقوى المجاهدين عن بعض المناطق، وسيطرة العدو على بعض المناطق، أو تدخل الدول الكبرى في الحرب، ما هو في عمر الأمة إلا أمور آنية، ما تلبث أن تتغير بسرعة تفوق توقعات العدو نفسه لصالح أهل الإسلام عندما نستمر على طريق الجهاد ولا ندخل في مصيدة العدو بحرفنا عن طريق الجهاد إلى السبل الأخرى، وعندما تتبنى الأمة خيار الجهاد نافضة عنها غبار الذل والاستكانة واليأس والقنوط.

ومن يجاهد في بقعة مباركة كالشام يقدَّر لها أن تكون معركة أمة كما هو حالها الآن –يعلم العدو مدى خطرها على بناءٍ بناه عبر قرون– فعليه أن لا يستغرب من احتشاد كل أصناف العدو لضرب جهاده، وبالتالي فعليه أن لا ييأس ولا يقنط؛ لأن هذا متوقع أصلاً بحكم فهمنا لطبيعة المعركة القائمة، ومن يفهم عن الله سننه في أقداره يعلم يقينًا أنها السنن؛ فيحتشد الكافرون بما يخيل للناظر أنها نهاية الإسلام وأهله «**اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا**» وتبلغ القلوب الحناجر وتتحزب الأحزاب، وتزيغ قلوب وتتطاير أفئدة، وينكص من ينكص ويهمّ آخرون به ثم تتداركهم رحمة الله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٢٢]، ويصل أهل الإيمان إلى الدرجة التي عبر عنها القرآن ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب]، ولكن المتقين ممن عرفوا كيف تتصرف يد الحكمة الإلهية في أقدارها يعلم أن احتشاد الأحزاب علامة استبشار: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢]، في ذات الوقت الذي يرى فيه آخرون أنها القاضية.

ومن هنا فمن السذاجة أن يعتبر بعض قصيري النظر أن هذا الجهاد في الثغر المبارك "الشام" إن اقتصر به أصحابه على ثغرهم، مراعاة لأفهام الناس ولطبيعة المعركة ومراحلها، ولضرورة تحييد من أمكن من الأحزاب كما هو هديه ﷺ في غزواته، أنه بهذا يتحول إلى جهاد قطري محلي، ولا يختلف عنهم كثيرًا بعض من في قلبه مرض –مرض قلة الثقة بموعود الله وقلة فهم سنن الله وأقداره– ممن راحوا يظنون أنهم لو قاموا

بالتماهي مع الدول في متطلباتها، أنهم في منجاة من مكر التآمر الدولي الذي لم يرض من مرسي كل ما قدمه، ولم يرض من تركيا أردوغان كل ما قدمته فراح يتآمر عليها، ولم يرض من قطر كل ما بذلته فحرك عليها وكلاءه، فأنى يسمح بكيان في الشام يخرج عن مراده بغير القوة ومواصلة الجهاد؟!

إن من يسلّم بكون معركة الشام معركة أمة لا معركة نخبة أو طائفة أو أنها معركة محلية تخص السوريين لوحدهم، يدرك جيدًا ضرورة عدم التشغيب على معركة الأمة هذه عبر رميها بالقطرية، أو تلوينها بألوان لا تنفع، أو تغطيتها بأغطية لا تقي حرًّا ولا قرًّا، كما يدرك أهمية التركيز على مواصلة الطريق الجهادي في هذا الثغر الذي يرجى له إزاحة الذل عن الأمة، وبالتالي فمن أدرك حقيقة معركة الشام وأنها معركة الأمة بحق، تصاغر عن وصفها بتلك الأوصاف، ويكفيه أن يلزم ثغره مجاهدًا مع المسلمين في الشام –برهم وفاجرهم– إن كان بحق يريد لأمته خيرًا، وأما إن كان لا يرى الجهاد للأمة بالأمة، أو كان يشك لحظة أن ثغر الشام اليوم هو من أهم ثغور الأمة على الإطلاق، والذي يرجى من نجاح الجهاد فيه تغير حال الأمة بأسرها، فليتب إلى الله أولاً من هذا الذنب الذي اقترفه حيث تكلم بغير علم، وخذَّل المسلمين من المهاجرين والأنصار عن واجب الوقت بعدم القعود لحظة عن الجهاد، وليُعِد قراءة المشهد على مستوى الأمة نافيًا عن نفسه الكِبر والاستعلاء على أمته التي تجاهد ببرها وفاجرها، ونافيًا عن نفسه صفة العلم الذي حقيقته الجهل المركب.

وأما من يرى أن نجم الجهاد إلى أفول فنذكره بأن معارك الإسلام هكذا هي دائمًا، ودونكم بدر وأحد والخندق ومؤتة والجسر والقادسية وحطين وعين جالوت، ونذكّره بأن المسلمين في الشام زمن الصحب الكرام انحازوا عن حمص وبعلبك ودمشق وكادوا ينسحبون جهة صحراء الجزيرة أكثر، ثم كانت اليرموك؛ اليرموك التي لو خسرها المسلمون لربما انتهى وجودهم حينها من الشام.

ختامًا؛ يقول قائلون: لا زال الخوارج يفسدون، وأهل الغلو يتشدقون، وبائعو التضحيات يتحضرون، وقُطَّاف الثمار يتربصون، والأحزاب يحتشدون، وأقول: هذه سنة الله في ابتلاء الناس حتى يميز الخبيث من الطيب، وإنَّ جهادًا –يسير في رعاية الله– يكون بانتصاره نصر الأمة كلها سيتعرض من البلاء لما يناسب مهمته في رفع الذل عن الأمة، فشمِّروا واستعدوا فهي والله الملاحم وإرهاصاتها.. والآن الآن جاء القتال.

والحمد لله رب العالمين